أخبار مروان بن أبي حفصة (*)

نسبته وكنيته

هو مَرْوان بن سُليمان بن يَحيى بن أبي حَفْصة . ويكنى أبا السِّمط . وأسم أبي حَفْصة يزيد .

أصله

وذُكر أنّه كان يَهوديًّا فأَسلم على يدى مَرْوان بن الحَكم . وأهلُه يُنكرون ذلك ويذكرون أنه من سَبْي إصْطخر ، وأنّ عُثمان بن عفّان رَضى الله عنه اشتراه فوَهبه لمَرْوان بن الحَكم .

حديث عتق أبي حفصة وكنيته

وشهِد أبو حَفْصة الدَّارَ (١) يوم قُتل عُثمان رضى الله عنه مع مَولاه مَروان بن الحَكم ، وقاتل قتالاً شديداً، وقَتل رجلاً من أَسْلَمَ ـ يقال له : بَنان ـ وجُرح مَرْوان يومئذ ؛ أصابتْه ضَربةٌ قطَعت عِلباَويه (٢) فَسقط ، فذَبّ عنه أبو حَفْصة واحتمله ، فجعل يَحمله مرةً على عُنقه ومرةً يجُرّه ، فيتأوّه ، فيقول له : اُسكت واُصبر ؛ فإنهم إن علموا أنك حيٌّ قَتلوك . فلم يزل به حتى أَدخله دارَ اُمرأة من عَنَزة ، فدَاواه فيها حتى برىء ؛ فأعتقه مروانُ ونَزل له عن أُمّ ولد كانت له منها بِنْت ـ يقال لها : حَفْصة ـ فَخضَنها ، فكُنِّى بأبى حَفْصة . فحفصة بنت مروان .

زواجه وأولاده

وكان مروان إذا ولى المدينة فى خلافة مُعاوية وجّه أبا حَفصة إلى اليمامة ليَجمع ما فيها من المال ويَحمله إليه ؛ فمرّ أبو حفصة بقَرية من قُرى اليَمامة ، فوَقف على

(*) ساق أبو الفرج قبل أخبار « مروان » صفحة وبعض الصفحة عن صنعة أولاد الخلفاء، الذكور منهم والإناث .

(١) أى يوم دار عثمان ، وبها قتل .

(٢) العلباء : عصيبة فى صفحة العنق .

باب فاُستسقى ماء ، فخرجتْ إليه جارية مُعْصِر [1] ، فسقتْه فأعجبتْه . فسأل عنها ليشتَريَها ، فقيل له : هى حُرة ، وهى مولاة لبنى عامر بن حَنيفة . فتتبعتْها نفسُه ومضى إلى اليمامةَ ، فلم يخرُج منها حتى تزوّجها ؛ فأتت منه بيحيى ، ومحمد ، وعبد الله ، وعبد العزيز .

فى فتنة ابن الزبير

ولما وقعت فتنةُ ابن الزبير خرج أبو حفصة مع مولاه مروان إلى الشام .

هو يوم الجمل بين مروان وعلى

وذُكر أن أبا حَفصةَ شَهِد مع مروان يوم الجَمل ، وقاتل قتالاً شديداً . فلما ظَفِر علىٌّ رضى الله عنه ، نَجا مروانُ إلى مالك بن مِسْمع فدخل داره ، ومعه أبوحَفصة ؛ فقال لمالك : أغلق بابك . فقال له مالك: إن لم أمنعك والباب مفتوح لم أمنعك والباب مُغلق . فطَلب علىٌّ عليه السلام مروَان منه ، فلم يَدْفعه إليه إلاّ برَهينة . فدَفع مالكٌ الرهينةَ إلى أبى حَفصة ، ومَضى بمروان إلى علىّ عليه السلام؛ فكَساه كُسوةً ، فكساها مروانُ أبا حَفصة . فغدا فيها أبو حفصة . وبَلغ ذلك عليًّا عليه السلام ، فغَضِب وقال : كسوتُه كُسوة فوهبها عبدَه !

فى مرج راهط

وشَهد أبو حَفصة مع مروان مَرْجَ راهط [2] ، وكان له بَلاء . وكان شاعراً .

من شعره يوم الدار

ومن شعره يومَ الدار :

وما قلتُ يومَ الدار للقَوم صالِحُوا ... أجَلْ لا ولا اخترتُ الحياة على القَتْلِ
ولكنّنى قد قلتُ للقوم جالِدُوا ... بأسيافكم لا يُخْلَصنّ إلى الكَهل

أبو حفصة بين عكل والعجم

وذُكر أن عُكْلاً تَدّعى أن أبا حَفصة منهم ، يقولون : هو من كِنانة بن عَوف بن عبد مَناة بن أُدّ بن طَابخة بن اليأس بن مُضَر، وقد كانوا اُستعدَوْا عليه مروانَ بن الحَكَم ، وقالوا : إنما باعتْه عَمّته لمجاعةِ ! فأبى هو أن يُقرّ بذلك . ثم

(١) معصر : قد بلغت شبابها وأدركت .

(٢) مرج راهط : فى غوطة دمشق من ناحية الشرق . وفيه كانت الوقعة بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس – داعية ابن الزبير – فقتل مروان فيها الضحاك وخلت له الخلافة .

أستعدَوْا عليه عبدَ الملك بن مَروان أيضاً ، فأَبى إلاّ أنه رجلٌ من العَجم من سَبْى فارس ، نَشأ فى عُكْل وهو صغير .

ادعاء غسان له

وولَدُ السموءل بن عادياء يَدّعونه . والسموءل من غسّان .

أخوه مروان

وذُكر أنه كان لأبى حَفْصة ابنٌ يقال له : مروان ، سمّاه مروانُ بن الحكم باسمه ، وليس بالشاعر ، وكان شُجاعاً ، أَمدّ به عبدُ الملك الحجّاجَ بن يُوسف وقال: بعثتُ إليك مولاى مَروان بن أبى حَفْصة ، وهو يَعْدِل ألفَ رجلٍ . فشهد معه حَرْب ابن الأشعث ، وأبلى فيه بَلاءً حسناً .

شىء عن يحيى جد مروان

وكان يَحيى بن أبى حَفْصة ، جدّ مروان الشاعر ، جواداً مُمدَّحاً ، وله أشعار حَسنة .

يحيى يهنىء عبد الملك ويعزيه

وذُكر أنّ عبد الملك بن مَروان لما تُوفى ، ووَلِى ولدُه الوليدُ بن عبد الملك ، دَخل عليه يحيى بن أبى حَفْصة فهنأه وعزّاه وأنشده :

إنّ المَنايا لا تُغادر واحداً ... يَمشى ببِزّته ولا ذا جُنَّهْ
لو كان خَلْقٌ للمنايا مُفْلِتاً ... كان الخليفةُ مُفْلِتاً مِنْهُنَّهْ
بَكتِ المَنابرُ يومَ مات وإنما ... بكتِ المنابرُ فَقْدَ فارسِهُنَّه
لما علا هُنّ الوليدُ خليفةً ... قُلْن ابنُه ونظيرُه فسَكَنَّه
لو غيرُه قَرَع المَنابر بعده ... لَنكِرْنَه وطَرَحْنه عَنهُنَّه

منزلة مروان فى الشعر وبخله

وكان مَروان بن سُليمان بن يَحيى بن أبى حَفصة شاعراً مُجيدا فحلاً من شُعراء الدولة العباسية ، وكان من أبخل الناس ، على يساره وكثرة ما أَصابه من الخُلفاء ، وكان بنو العبّاس يُعطونه لكُل بيت يَمدحهم به ألفَ درهم .

من بخله وجود سلم

وذُكر أنّ المهدىَّ كان يُعطى مروانَ بن أبى حفصة وسَلْماً الخاسرَ عطيةً واحدة، فكان سَلم يأتى إلى باب المَهدىّ على البِرْذون قيمتُه عشرة آلاف درهم ، والسَّرجِ

واللجام المَقْذُوذين [١] ، ولباسُه الخزُّ والوَشيُ ، وما أشبه ذلك من الثياب الغاليـة الأثمان ، ورائحةُ المِسـك والغالية والطِّيب تفُوح منه ؛ ويجيء مروانُ بن أبي حَفْصة وعليه فَرْو كَبش وقميصُ كَرابيس [٢] ، وعمامةُ كَرابيس ، وكساء غليظ مُنتن الرائحة ، وكان لا يأكل اللَّحم بُخلاً حتى يَقْرَم [٣] ، فإذا قَرِم أرسل غُلامَه فيشترى له رأساً فيأكله. فقيل له : نَراك لا تأكل إلا الرُّءوس فى الصَّيف والشتاء! فلم تختار ذلك ؟ قال : نعم ، الرأسُ أعرِفُ سعره فلا يَستطيع الغُلام أن يَغْبِنني فيه، وليس بلَحم يطبُخه الغُلام فيقدر أن يأكل منه ، إنْ مسَّ عيناً ، أو أخذ أُذناً أو خَدًّا وقفتُ على ذلك ، وآكُل منه ألواناً، آكل عينَيه لوناً، وأُذنيه لوناً، وغَلْصمته لوناً ، ودماغه لوناً ، وأُكْفَى مؤونة طَبْخه ؛ فقد اجتمعت لى فيه مَرافق كثيرة .

من نوادره فى البخل

ويَحكى موسى بن يحيى بن خالد بن بَرْمك قال :

أوصلنا إلى مروان بن أبى حَفصة فى وقت من الأوقات سبعينَ ألف درهم ، فجمع إليها مالاً حتى تمّت مائة ألف درهم ، وأَودعها يزيدَ بن مَزْيد . قال : فبينا نحن عند يحيى بن خالد إذ دخـل يزيد بن مَزْيد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : يا أبا علىّ ، أَودَعَنى مروانُ بن أبى حَفصة خمسينَ ومائة ألف درهم ، وهو يَشترى الخُبز من البقّال . فغضب يحيى ثم قال : علىَّ بمَروان . فأُتى به . فقال له : أَخبرنى أبو خالد بما أَودعتَه من المال وما تَبتاعه من البقّال ، ووالله لما يُرى من أَثر البُخل عليك أَضرُّ من الفقر لو كان بك .

وحُكى عن مروان بن أبى حفصة أنه قال :

ما فَرحتُ بشىء قطُّ فرحى بمائة ألف دِرهم وَهبها لى أميرُ المؤمنين المهدى، فوزنتُها فزادت درهماً ، فاشتريت به لحماً .

(١) المقنوذ : المزين المسوى. (٢) الكرابيس : الثياب الخشنة ؛ جمع : كرباس .
(٣) أى تشتد شهوته إليه .

وحكى جَهم بن خلف قال :

نزلنا على مروان بن أبى حَفصة باليمامة ، فأطعمنا تمراً ، وأرسل غُلامه بفَلْس وسُكُرُّجَة [١] ليشترَى لنا زيتاً . فلما جاء بالزيت قال : خُنْتَنى ! قال : مِن فَلس كيف أخونُك ! قال : أخذتَ الفَلس لنفسك واستوهبت الزيت .

وقيـــل :

مرَّ مروانُ بن أبى حفصة فى بعض أسفاره ، وهو يُريد معنَ بن زائدة ، بامرأة من العرب ، فأضافته ، فقال : لله علىّ إنْ وَهب لى الأميرُ مائةَ ألفِ درهم أن أهَب لكِ درهماً . فأعطاه ستِّين ألفَ درهم . فأعطاها دَوانِق [٢] .

وقيـــل :

اشترى مروانُ لحماً بنِصف دِرهم ، فلمّا وضعه فى القِدر ، وكاد يَنضج ، دعاه صديقٌ له ، فردَّه على القصَّاب بنُقْصان دَانق ؛ فشَكَّه [٣] القصَّاب وجَعل يُنادى : هـذا لحمُ مَروان ! وظَن أنه يأنف لذلك . و بلغ الرشيدَ ذلك فقال : ويلك ! ما هذه الفَعلة ! فقال : أكره الإسراف .

وقيل : فرَّق المهدىُّ على الشُّعراء جوائزَ ، فأعطى مروانَ بن أبى حَفصة ثلاثين ألفاً . فجاءه أبو الشَّمَقْمق فقال : أجِزْنى من الجائزة . فقال : أنا وأنت نأخذ ولا نُعطى . قال : فاسمع بيتَيْن . قال : هات . فقال أبو الشَّمقمق :

لِحْيَة مروانَ تَقِى عَنـــبرَا ... خالطَ مِسْكاً خالصاً [٤] أَذْفَرَا

فمـا يُقيمان بها ســـاعةً ... حتى [٥] يعـودان جميعاً خَرَا

---

(١) السكرجة : الصفحة . (٢) دوانق : جمع : دانق ، وهو سدس الدرهم .

(٣) شكه ، أى انتظمه فى شوكة : يريد : علقه . والرواية فى غير التجريد : « فشكاه » .

(٤) تقى ، أى « تقىء » بالهمز ، فسهل . والأذفر : الجيد من المسك .

(٥) فى غير التجريد : « إلا » .

فأمر له بدرهمين .

مع الهادى

وذُكر أنّ مروان بن أبى حفصة دَخل على موسى الهادى ، فأنشده قولَه فيه :

تَشابه يوماً بُؤسه ونَواله فما أحدٌ يَدرِى لأيّهما الفَضْلُ

فقال له الهادى : أيما أحبّ إليك : ثلاثون ألفاً مُعجَّلةً، أم مائةُ ألف تُدوَّن فى الدواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت تُحسن ما هو خيرٌ من هذا ، ولكنّك أنسيته ؛ أفتأذن لى أن أذكِّرك ؟ قال : نعم . قال : تُعجِّل لى الثلاثين ألفاً وتُدوِّن المائة الألف فى الدَّواوين . فضحك وقال : بل يُعجَّلان جميعاً . فحُمل المال إليه أجمع .

احتكامه إلى يونس فى شعره وتفضيله على الأعشى

وذُكر أنّ مروان بن أبى حَفصة جاء إلى حَلْقة يُونس فسلّم، ثم قال لهم : أيكم يُونس ؟ فأومئوا له إليه . فقال له : أصلحك الله ! إنى أرى قوماً يقولون الشعر ؛ لأنْ يَكشف أحدُهم سوءتَه ثم يَمشى كذلك فى الطريق أحسنُ له من أن يُظهر مثلَ ذلك الشعر ! وقد قلتُ شعراً أعْرِضه عليك ، فإن كان جيِّداً أظهرتُه ، وإن كان رديئاً سترتُه . فأنشده :

طرقَتْك زائرةً فحىّ خَيالَها بيضاء تَخلط بالحَياء (١) دلالَها

فقال له يونس : يا هذا ، اذهب فأَظْهِر هذا الشعر ، فأنت والله فيه أشعرُ من الأعشى فى قوله :

* رحلتْ سُميَّة غُدوةً أجمالَها *

فقال له مَروان : سررتَنى وسُؤْتنى ؛ فأما الذى سرّنى فارتضاؤك الشعرَ ، وأما الذى ساءنى فتقْديمك إياى على الأعشى ، وأنت تعرف محلَّه . فقال له : إنما قدَّمتُك عليه فى تلك القصيدة لا فى الشِّعر كله ؛ لأنه قال فيها :

* فأصاب حبّة قلبها وطِحالَها *

(١) فى بعض أصول الأغانى : « بالدلال جمالها » .

والطّحال لا يدخل فى شىء إلا أفسده ، وقصيدتُك سليمة من هذا وشِبْهه .

اتصاله بمعن وانتحاله شعر الباهلى

وحُكى أنَّ مروان بن أبى حَفصة مرّ برجل من باهلةَ من أهل اليمامة ، وهو يُنشد قوماً كان جالساً إليهم ، شعراً مَدح به مروانَ بن مُحمد ، وأنه قُتل قبل أن يلقاه ، و يُنْشده إياه ، أوله :

مَروانُ يا بن محمدٍ أنت الذى زيدتْ به شَرَفاً بنو مروانِ

فأعجبتْه القصيدةُ ، فأمهل الباهلىَّ حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه فى منزله فقال له : إنّى قد سمعتُ قصيدتَك وأعجبتْنى ، ومروانُ قد مَضى ومضى أهلُه ، وفاتك ماقدَّرتَ عنده ؛ أفتبيعُنى القصيدة حتى أَنتحلها ، فإنه خيرٌ لك من أن تبقى عليك وأنت فقير ! فقال : بكم ؟ فقال : بثلثمائة درهم . قال : قد بِعْتُها . فأعطاه الدراهمَ ، وحلَّفه بالطلاق ثلاثاً و بالأيمان المُحرِجة ألّا يَنْتحلها أبداً ولا ينسُبها إلى نفسه ولا يُنْشدها . وانصرف إلى منزله ، فغيّر منها أبياتاً وزاد فيها ، وجَعلها فى مَعن بن الشَّيبانى ، وقال :

مَعْنُ بن زائدةَ الذى زِيدت به شَرفاً إلى شَرف بنو شَيبانِ

ووفد بها إلى مَعن بن زائدة ، فملأ يديه ، وأقام عنده مدةً حتى أثرى واتسعت حاله . فكان مَعنٌ أولَ مَن رفع ذكره ونوَّه به . وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفة ومراثٍ حَسنة .

حديثه عن معن وسعى المنصور فى طلبه

وحَكى مروانُ بن أبى حَفصة قال :

كان أبو جَعفر المَنصور قد طَلب مَعن بن زائدة طلباً شديداً ، وجعل فيه مالاً . قال مروان : فحدّثنى معنُ بن زائدة باليمن أنه اُضطُر لشدّة الطلب إلى أن قام فى الشَّمس إلى ان لوَّحت وجهَه ، وخفَّف عارضيه ولِحْيته ، ولَبِس جُبة صُوف غليظة ، وركب جملاً من الجِمال النَّقّالة ، وخَرج عليه ليَمْضى إلى البادية فيُقيم بها ؛ وكان قد

أبلى فى حرب يَزيد بن عُمر بن هُبيرة [1] بلاءً غاظ المنصورَ وجدَّ فى طلبه . قال مَعن : فلما خرجتُ من باب حَرْب [2] تبعنى أسودُ متقلِّدا سيفاً ، حتى إذا غِبتُ عن الحَرس قَبض على خِطام الجمل فأناخه ، وقَبض علىّ . فقلت : مالك ؟ قال : أنت طَلِبةُ أمير المؤمنين . قال معن بن زائدة : فقلت : يا هذا ، اتّق الله ! وأين أنا من مَعن ! فقال : دَع هذا عَنك ، أنا والله أعرفُ به منك . فقلت له : فإن كانت القصّة كما تقول فهذا جوهرٌ حملتُه معى يفى بأضعاف ما بذَله المنصورُ لمن جاءه بى ، فخذْه ولا تَسْفك دمى . فقال : هاتِه . فأخرجتُه إليه . فنظر إليه ساعةً وقال : صدقتَ فى قيمته ، ولستُ قابلَه حتى أسألك عن شىء ، فإن صدقتَنى أطلقتُك . فقلت : قل . قال : إن الناس قد وصَفوك بالجود ، فأخبرنى : هل وهبتَ مالَك كله ؟ قلت : لا . قال : فنصفَه ؟ قلت : لا . قال : فثُلثه ؟ قلت : لا . حتى بلغ العُشر . فاستحييتُ وقلت : أظُنّ أنى قد فعلتُ هذا . فقال ما ذاك بعَظيم ، أنا والله راجل ، ورِزقى من أبى جعفر عشرون درهما ، وهذا الجوهر قيمتُه آلافُ دنانير ، وقد وهبتُه لك ووهبتُك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس ، ولتَعلم أنّ فى الدُّنيا مَن هو أجود منك ، فلا تُعجبك نفسُك ولْتحقر بعد هذا كُلَّ شىء تَفعله ، ولا تتوقَّف عن مَكْرُمة ؛ ثم رَمَى بالعقد فى حِجْرى وخلَّى خِطام البعير وانصرف . فقلت له : يا هذا ، والله فضحْتَنى ! ولَسَفْكُ دمى أهونُ علىّ ممّا فعلتَ ! خُذ ما دفعتُ إليك فإنى غَنِىٌّ عنه . فضحك ثم قال : أردتَ أن تكذِّبنى فى مَقامى هذا ، والله لا آخُذه ولا آخُذ لمَعروفٍ ثمناً أبداً ، ومَضى . فوالله لقد طلبتُه بعد أن أمنتُ ، وبذلتُ لمن جاءنى به ما شاء ، فما عرفتُ له خبراً ، وكأنّ الأرض ابتلعتْه .

(١) من رجالات بنى أمية وفرسانهم . أبلى مع مروان بن محمد ، ثم قتله أبو جعفر سنة ١٣٢ هـ. (الطبرى فى حوادث هذه السنة) .

(٢) موضع ببغداد ، ينسب إلى حرب بن عبد الله البلخى ، أحد قواد المنصور . (ياقوت) .

قال : وكان سبب رِضا المنصور عن مَعن أنه لم يزل مُستتراً حتى كان يوم الهاشميّة[1] :

تعقيب لابن واصل

قلت : هذا يوم وثبتْ فيه جماعةٌ على المَنصور — ويقال لهم : الرَّاوندية ، كانوا يَعتقدون أن المَنصور إلٰه خالق رازق — وبلغ المنصورَ ذلك عنهم فأمر بقَتلهم ، فوثبوا به فى المدينة التى بناها أخوه السَّفَّاح وسمّاها الهاشمية .

عود لحديث مروان عن معن

قال مروان : فلما وَثب القومُ على المَنصور وكادوا يقتُلونه ، وثب معنُ بن زائدة وهو متلثِّم فاْنتضَى سيفَه وقاتل ، فأبلى بلاءً حسناً ، وذَبّ القومَ عنه حتى نَجا ، وهم يُحار بونه بعدُ . ثم جاء والمنصورُ راكب على بَغلة ولجامُها بيد الرَّبيع ، فقال له : تَنَحَّ فإنى أحقُّ باللجام منك فى هـذا الوقت وأعظمُ فيه غناءً . فقال له المَنصور : صَدَق ! فاْدفعه إليه . فأَخذه ، فلم يزل يُقاتل حتى انكشفت تلك الحالُ . فقال له المنصور : من أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا طَلِبتك يا أميرَ المُؤمنين : مَعن بن زائدة . فقال : قد أَمَّنك الله على نَفسك ومالك ، ومِثلك يُصطنع . ثم أَخذه معه ، فخَلع عليه وحَباه وزيّنه[2] . ثم دعا به ، فقال : إنّى قد أَهّلتُك لأمرٍ فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يُحبّ أميرُ المؤمنين . قال : قد ولّيتك اليَمن ، فاْبسُط فيهم السيفَ حتى يُنقَض حِلْف ربيعـةَ واليمن . قال : أبلُغ من ذلك ما يُحب أمير المُؤمنين . فولّاه اليمنَ . وتوجّه إليها فبَسط فيهم السيفَ .

قال مروان : وقَدم معنُ بن زائدة بعَقِب ذلك فدَخل على المنصور . فقال له بعد كلام طويل : قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك شىءٌ ، لولا مكانُك عنده ورأيه فيك لغَضِب عليك . قال : وما ذلك يا أميرَ المُؤمنين ، فوالله ما تعرّضتُ لك منك . قال : إعطاؤُك مروانَ بن أبى حَفْصة ألفَ دينار ، لقوله فيك :

---

(١) الهاشمية : مدينة بناها السفاح بالكوفة ، وزاد فيها المنصور ؛ وسيعرض ابن واصل لهذا اليوم . (ياقوت) . (٢) فى التجريد : « ورتبه » .

مَعْنُ بن زائدةَ الذى زِيدتْ به شرفاً على شَرفٍ بنو شَيبانِ
إن عُدّ أيامُ الفَخار[1] فإنما يوماهُ يومُ ندًى ويومُ طِعان

فقال: والله يا أميرَ المُؤمنين ما أعطيته ما بَلغك لهذا الشعر، وإنما أعطيتُه لقوله:

ما زِلتَ يومَ الهاشميـة مُعلَماً بالسيف دون خليفة الرحمٰنِ
فمنعتَ حَوْزَته وكنتَ وِقاءه من وَقْع كُلِّ مُهنَّد وسِنان

فاستحيا المنصور وقال: إنما أعطيتَه ما أعطيته لهذا القول؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ووالله لولا مَخافة الشَّناعة[2] عندك لأمكنتُه من مفاتيح بيت المال، وأبحتُه إيّاها. فقال المنصور: لله دَرُّك من أعرابيّ! ما أهونَ عليك ما يَعِزُّ على الرجال وأهل الحزم!

هو والمهدى وقد وفد عليه يمدحه

وحَكى الفضلُ بن الرَّبيع قال:

رأيتُ مروانَ بن أبي حَفْصة، وقد دَخل على المهديّ بعد وفاة مَعن بن زائدة في جُملة الشُّعراء، فيهم سَلْم الخاسر وغيرُه، فأنشده مديحاً له فيه؛ فقال له: من أنت؟ فقال: شاعرُك يا أميرَ المُؤمنين مروانُ بن أبي حَفصة. فقال له المَهديّ: ألست القائل:

أَقَمْنا بالمدينة[3] بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نُريد به زَوالَا
وقُلنا أين نَرحل بعد مَعْنٍ وقد ذَهب النَّوالُ فلا نَوالا

قد ذهب النّوال فيما زعمتَ، فلم جئتَ تطلُب أموالَنا؟ لا شيءَ لك عندنا! جُرُّوا برجله. فجرُّوا برِجْله، حتى أُخرج. فلما كان العامُ المُقبل تلطَّف حتى دَخل

(١) في غير التجريد: «الفعال».
(٢) في بعض أصول الأغاني: «النقمة». وفي بعض آخر: «الشنعة».
(٣) في غير التجريد: «باليمامة».

مع الشُّعراء — و إنما كانت الشُّعراء تدخُل على الخُلفاء فى كل عام مرة — فَمَثل بين يديه وأنشده بعد رابع ، أو بعد خامس ، من الشعراء :

طرقتْك زائرةً فحىّ خيالَهـــا بيضاء تَخلط بالحَيـاء دَلالَهَـا
قادتْ فُؤادَك فاسـتقاد ومثلُها قاد القُلوبَ إلى الصِّبا فأمالهـــا

فأنصت لها المهدىُّ ، حتى بلغ مروان إلى قوله :

هل تَطْمِسون من السماء نُجومَهـا بأكفِّكم أو تَسْـتُرون هِلالَهـا
أو تَجْحدون مقـالةً من ربِّكم جبريلُ بَلَّغها النبىَّ فقالَهـا
شهدتْ من الأنفال آخرُ[1] آية بـتُراثهم فأردتُمُ إبْطالَهـــا

هو والرشيد وقد وفد عليه يمدحه

قال : فرأيتُ المهـدىَّ وقد زَحف من صَدر مُصلَّاه حتى صار على البِساط ، إعجاباً بما سَمع ، ثم قال : كم هى ؟ قال : مائةُ بيت . فأمر له بمائة ألفِ درهم . فكانت أوّلَ مائة ألف دِرهم أُعطيها شاعرٌ فى أيام بنى العبّاس .

قال : ومَضت الأيامُ وَولى هارون الرشيد الخلافةَ ، فدَخل إليه مروان ، فرأيتُه واقفاً مع الشُّعراء ، ثم أنشده قصيدةً امتـدحه بها . فقال : من أنت ؟ فقال : شاعرُك وعبـدُك يا أميرَ المُؤمنين مَروانُ بن أبى حفصة . فقال له : ألستَ القائل فى معن بن زائدة ؟ وأنشده البيتين اللذين أنشده إياهما المَهـدى ، ثم قال : خُذوا بيـده فأخرجوه ، لا شىء لك عندنا ! فلما كان بعد ذلك بيومين تلطَّف حتى دَخل ، فأنشده قصيدتَه التى يقول فيها :

لعمرك ما أنسى غـداةَ المُحصَّب إشارةَ سَـلْمى بالبَنان المُخضَّبِ
وقد صَـدر الحُجَّاج إلّا أقلَّهم مصادر شَتَّى مَوكباً بعد مَوْكِب

(١) يشير إلى قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعد و هاجروا و جاهدوا معكم فأولئك منكم . وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله . إن الله بكل شىء عليم) .

فأعجبته . فقال : كم قصيدتُك ؟ فقال : ستُّون ـ أو سبعون ـ بيتاً . فأمر له بعَدد أبياتها أُلوفاً . فكان ذلك رَسْمَ مروان عندهم حتى مات .

صلة المهدى له

وقال مروانُ بن أبى حفصة :

دخلتُ على المهدىّ فى قَصره بالرُّصافة ، فأنشدتُه قولى فيه :

أَمَرُّ وأَحْلَى ما بلا النـاسُ طعمَه ... عـذابُ أمـير المُؤمنين ونائلُه

وإنّ طَليقَ الله من أنت مُطْلِقٌ ... وإنّ قَتيـلَ الله من أنت قاتلُه

كأنّ أميرَ المُؤمنين محمـداً ... أبو جعفر فى كُلِّ أمرٍ يُحـاوله

قال : فأُعجب بها وأمر لى بمـال عظيم . وكانت تلك الصلةُ أوّلَ صـلةٍ سَنِيَّة وصلتْ إلىّ فى أيّام بنى هاشم .

حديثه مع الجنى

وحَـكى محمدُ بن حَفْص بن عَمْرو بن الأَيهم الحَنفىّ قال :

مرّ مروانُ بن أبى حَفصة برجلٍ من تَيم اللَّات بن ثَعلبـة ، يُعْرَفُ بالجِنّىّ . فقال له مروان : زَعموا أنّك تقول الشِّـعر . فقال له : إن شئتَ عَرَّفْتُك ذلك . فقال له مَروان : وما أنتَ والشِّعر ! ما أرى ذلك من طريقتك ولا تقوله ! فقال له الجِنّىّ : اُجلس فاسمع . فجلس . فقال الجِنّى يهجوه :

ثَوى اللُّؤم فى عَجْلانَ يوماً وليـلةً ... وفى دار مَروانٍ ثَوى آخر الدَّهرِ

غـدا اللؤمُ يَبغى مَطْرَحاً لرِحاله ... فنقَّب فى بَرِّ البـلاد وفى البَحر

فلمّـا أتى مروانَ خَيَّم عنـــده ... وقال رَضِينا بالمُقـام إلى الحَشْر

وليست لمروانٍ على العِرْسِ غَيرةٌ ... ولـكنّ مروانـاً يَغار على القِـدْر

فقال له مروان : نَشدتُك الله إلّا كَففْتَ ، فإنك أشعرُ الناس . فحَلف الجِنّى بالطلاق ثلاثاً أنه لا يكفّ حتى يَصير إليه بنَفر من رؤساء أهـل اليمامة ، ثم يقول

بحَضرتهم : قاق ! فى أستى بيضة . فجاءهم مروانُ وفعل ذلك بحَضرتهم — وكان فيهم جَدِّى يحيى بن الأَيهم — فانصرفوا وهم يضحكون من فِعله .

وفوده على الهادى مهنئاً ومعزياً

وذُكر أنه لما مات المهدىُّ وفدتِ العربُ على ابنه مُوسى الهادى يهنئونه بالخِلافة ، ويُعزُّونه عن المهدىّ . فدَخل مروانُ بن أبى حفصة ، فأَخذ بعَضادَتى الباب ، ثم قال :

لقد أصبحتْ تَختال فى كُل بلدةٍ ... بقَبر أمير المُؤمنين المَقابرُ
ولو لم تُسَكَّن بالبنه فى[1] مقامه ... لما بَرِحَت تَبْكى عليه المَنابرُ

فخرج الناس بالبيتين .

تهنئته ابن مسعدة بإبلاله من مرضه

وذُكر أنه مرض عمرو بن مَسعدة ، فدَخل عليه مروانُ بنُ أبى حفصة ، وقد أبلَّ من مرضه ، فأنشأ يقول :

وصحّ الجِسْمُ يا عمرو ... لكَ التَّمْحِيصُ والأَجرُ
ولله علينا الحَمْـ ... ـدُ والمِنَّة والشُّكر
فقد كان شكا شوقاً ... إليك النَّهىُ والأَمرُ

لصريع الغوانى فى نحوه

فنَحا نحوه مُسلم بن الوليد صريعُ الغوانى فقال :

قالوا أبو الفَضل محمومٌ فقلت لهم ... نَفسى الفِداء له من كُلِّ مَحْذورِ
يا ليت عِلَّتَه بى غير أنَّ له ... أجرَ العَليل وأنِّى غيرُ مأجور

شعره الذى فيه الغناء

والشعرُ الذى فيه الغناء ، وأفتتح به أبو الفرج أخبارَ مروانَ بن أبى حفصة ، هو :

* هل تَطْمِسون من السماء نُجومَها *

والبيت الذى بعده ، وقوله : « طرقتك زائرة » . وقد تقدّم ذكرها[2] .

(١) فى غير التجريد : «فى مكانه» . (٢) انظر (ص ١١٣٧ و١١٤٢) من هذا الجزء .

أخبار إبراهيم بن المهدى

نسبه

هو أبو عبد الله محمد بن المنصور أبى جَعفر عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله ابن العبَّاس بن عبد المُطلب .

أمه

وأمه شَكْلة ، أَمةٌ مولَّدة . كان أبوها رجل من أصحاب المازيار ، يقال له : شاه أفْرند . فقُتل مع المازيار ، وسُبيت شَكِلة وحُملت إلى المنصور ، فوَهبها لمُحيّاةَ أُمّ ولده ، فربَّتها و بعثتْ بها إلى الطائف ، فنشأت هناك وتفصَّحت . فلما كَبرتْ رُدّت إليها ، فرآها المهدىّ عندها فأعجبتْه ، فطلبها من مُحَيَّاة ، فأعطتْه إيّاها ، فولدت منه إبراهيم .

من صفته

وكان رجلاً عاقلاً فَهِماً أديباً [1] شاعراً ، راوية للشِّعر وأيام العرب ، خطيباً فصيحاً حسنَ العارضة .

لإسحاق الموصلى فيه

وكان إسحاق الموصلى يقول :

ما وَلد العبّاسُ بن عبد المطلب ، بعد عبد الله بن العباس ، رجلاً أفضلَ من إبراهيم بن المَهدىّ . فقيل له : مع ما تَبذَّل به من الغناء ؟ فقال : وهل تَمَّ فضلُه إلّا بذلك .

منزلته فى الغناء

وكان إبراهيم ، مع فَضله وشرفه ، بارعاً فى صناعة الغِناء متقدِّماً فيها . وكان يقول : لولا أنّى أرفع نفسى عن هذه الصناعة لأظهرتُ فيها ما يَعلم الناس معه أنهم لم يَرَوْا قَبلى مِثلى .

---

(١) فى بعض أصول الأغانى : « دينا » .

غناؤه لسليمان بن أبى جعفر و جعفر ابن يحيى

وكان رُبما غنَّى لأخيه الرشيد المرّةَ بعد المرّة . فحُكى عنه أنه قال :

كان الرشيدُ يُحب أن يسمعنى ، فخلا بى مرّاتٍ إلى أنْ سَمعنى . ثم حضرتُه مرّةً وعنده سليمانُ بن أبى جعفر المَنصور ، فقال لى : عمُّك وسيدُ ولد المَنصور بعد أبيك ، وقد أحبّ أن يَسمعك . فلم يتركنى حتى غنَّيتُ بين يديه :

سَقياً لرَبْعِكِ من رَبعٍ بذى سَلَمٍ ... وللزَّمان به إذ ذاك من زَمنِ
إذ أنتِ فينا لمن ينهاكِ عاصيةٌ ... و إذ أُجُرّ إليكم سادراً رَسَنِى

فأمر لى بألف ألف درهم . ثم قال لى ليلةً أُخرى ، ولم يَبقَ عنده فى المجلس إلّا جعفر بن يحيى ، فقال : أنا أُحبُّ أن تشرِّفَ جعفراً بأن تُغنِّيه صوتاً . فغنيتُه لحناً صنعتُه فى شعر الدَّارمىّ :

كأنّ صُورتها فى الوصف إذ وُصفتْ ... دينارُ عَينٍ من المَضْروبة[1] العُتُقِ
أو دُرَّةٌ أَعْيَت الغوّاصَ فى صَدَفٍ ... أو ذَهَبٌ صاغَه الصوّاغ فى وَرِقِ

فأمر لى بألف ألف درهم .

حبسه الأمين ثم رضى عنه وأطلقه

وحَكى إبراهيم بن المهدىّ قال :

غَضِب علىّ محمدٌ الأمين فى بعض هَناته ، وسلّمنى إلى كَوْثر[2] ، وحَبسنى فى سِرْداب وأَغلقه علىّ . فمكثتُ فيه ليلتى . فلما أصبحتُ إذا أنا بشيخٍ قد خَرج علىّ من زاويةِ السِّرداب ، فدَفع إلىّ رَبيطاً[3] وقال : كُلْ . فأكلت . ثم أخرج لى قِنِّينة شراب ، فقال : أشرب . فشربتُ . ثم قال لى غَنّ فغنيتُ :

لى مُدةٌ لا بُدَّ أَبلُغُهـــا ... معلومةٌ فإذا انقضتْ مُتُّ
لو سَاورتْنى الأُسد ضاريةً ... لغلبتُهـــا ما لم يَجِ الوَقْت

(١) فى غير التجريد : « المصرية » .
(٢) هو كوثر خادم الأمين .
(٣) الربيط : التمر اليابس .

وسمعنى كَوثر . فصار إلى محمد وقال له : قد جُنّ عَمُّك ! هو جالسٌ يُغنِّى بكَيت وكَيت . فأَمر بإحضارى . فأُحضرت . فأخبرتُه بالقصّة . فأمر لى بسبعمائة ألف دِرهم ، ورَضى عنِّى .

أبو أحمد بن الرشيد والمأمون ومطارحة علية له

وحَكى أبو أحمد بن الرشيد قال :

كنتُ يوماً بحضرة المأمون وهو يشرب ، فدعا بياسِرٍ فسارّه بشىء . فمَضى وعاد . فقام المأمونُ وقال لى : قُم . فدَخل دار الحُرم ودخلتُ معه ، فسمعتُ غِناءً أذهل عقلى . وفَطِن المأمونُ لما بى ، فضَحك وقال : هـذه عَمّتُك عُلَيّـة تُطارح عمَّك إبراهيم . والشعرُ لعُلَيّـة بنت المهدىّ ، وكذلك الصَّنعة :

مالِى أرى الأَبصارَ بى جافِيَهْ ... لم تَلْتَفِتْ منِّى إلى ناحيهْ
لا ينظر النـاسُ إلى المُبتلَى ... وإنما الناسُ مع العافيـه
صَحْبى سلُوا ربكُم العافيـهْ ... فقد دهتْنى بعدكمُ داهيـه
وقد جفانى ظالماً سيدى ... فأَدمُعى مُنهـلّةٌ[1] جاريه

ابن بسخنر بيته وبين جاريتـه شـارية

وحكى محمدُ بن الحارث بن بُسْخُنَّر قال :

وجَّه إلىّ إبراهيمُ بن المهـدىّ يوماً يدعونى ، وذلك فى أول خلافة المُعتصم ، فصرتُ إليه وهو جالس وحدَه ، وشاريةُ جاريته خلف السِّتارة ، فقال : إنِّى قلتُ شعراً وغنيتُ فيـه ، فطرحتُه على شارية فأخذتْه ، وزعمتْ أنها أحذقُ به منِّى ، وأنا أقول : إنى أحذق به منها ، وقد تراضينا بك حَكَماً بيننا لموضعك فى هـذه الصناعة ، فاسمعه منِّى ومنها واحكم ، ولا تَعجل حتى تَسمعَه ثلاثَ مرّات . فقلت : نعم . فاندفع يغنِّى :

أَضَنَّ بلَيلى وهى غيرُ سخيةٍ ... وتَبخل ليلى بالهَوى وأَجودُ

فأَحسن وأَجاد . ثم قال لها : تغنَّىْ . فغنَّتْه ، فبرَّزت فيه حتى كأنه كان معها

(١) فى بعض أصول الأغانى : « هامية » مكان « جارية » .

فى « أبى جاد » . ونظر إلىّ فعرف أنى قد عرفتُ فضلَها عليـــه . فقال : على رِسْلِك ! وتحدَّثنا وشَرِبْنا ، ثم اندفع فغنّاه ثانيةً ، فأضعف فى الإحسان . ثم قال لها : تغنَّىْ . فغنَّت، فبرعت وزادت أضعافَ زيادته ، وكدتُ أشُقّ ثيابى طرباً . فقال لى : تثبَّت ولا تعجل . ثم غنّاه ثالثةً ، فلم يُبْقِ غايةً فى الإحكام . ثم أمرها ، فغنَّت . فكأنه إنما كان يلعب . ثم قال لى : قُل . فقضيتُ لها . فقال : أصبتَ . فكم تُساوى عندك الآن ؟ فحملنى الحسدُ له عليها ، والنفاسةُ بمثلها أنْ قلت : تُساوى مائة ألف دِرهم . فقال : أوَ ماتُساوى على هذا الإحسان وعلى هذا التَّفضيل إلّا مائة ألف ! قَبَحَ الله رأيَك ! والله ما أجِد شيئاً أبلغ فى عُقوبتك من أن أصرفَك ، فقم فانصرفْ إلى منزلك مَذْموماً . فقلت له : ما لقولك : « اُخرج من منزلى » جوابٌ ! وقمتُ فانصرفتُ ، وقد أحفظنى كلامُه وأرمضنى[1] . فلما خطوتُ خُطواتٍ التفتُّ إليـه فقلت : يا إبراهيم ، أتطرُدنى من مَنزلك ! فوالله ما تُحسن أنت ولا جاريتُك شيئاً ! وضَرب الدهرُ ضربانَه ، ثم دعانى المُعتصم بعد ذلك وهو بالوزيريّة فى قصر التّل ، فدخلتُ أنا ومُخارق وعَلَّويه ، وإذا أميرُ المؤمنين مُصطبح وبين يديه ثلاث جاماتٍ : جامُ فضّـة مملوءةٌ دنانير جُدُداً ، وجام ذهب مملوءةٌ دراهم جُدداً ، وجام قوارير مملوءةٌ عنبراً . فظنّنا أنها لنا ، بل لم نَشُك فى ذلك . فغنّيناه وأجهـدنا أنفُسنا ، فلم يَطرب ولم يتحرك لشىء من غنائنا . ودخل الحاجبُ فقال : إبراهيمُ ابن المهدىّ . فأذِن له . فدَخل فغنّاه أصواتاً أحسنَ فيها ما شاء . ثم غنّاه بصوت من صَنعته — والشعر لإبراهيم الموصلى — وهو :

ما بالُ شَمسِ أبى الخَطّاب قد غَرَبتْ ... يا صـاحبىّ أظُنّ السـاعةَ اقتربتْ

فاستحسنه المُعتصم وطَرب له ، وقال : أحسنتَ والله ! فقال إبراهيم : يا أميرَ المؤمنين ، فإن كنتُ قد أحسنتُ فهَب لى إحدى هذه الجامات . فقال :

(١) فى بعض أصول الأغانى : « وأمضنى » .

خُذ أيتها شئت . فأخذ التى فيها الدَّنانير . فنَظر بعضنا إلى بعض . ثم غنّاه إبراهيمُ بشعر له ، وهو :

فمـــا مُزَّةٌ قهوةٌ قَرقَفٌ شَمُولٌ تَروق بَراوُوقها[1]

فقال : أحسنت والله يا عم ، وسَررتَ ! فقـال : يا أميرَ المؤمنين ، إن كنتُ أحسنتُ فهَبْ لى جاماً أُخرى . فقال : خُذ أيتهما شئت . فأخذ الجام التى فيها الدَّراهم . فعندها انقطع رجاؤنا منها . وغنّاه بعد ساعة بشعر العبّاس بن الأحنف :

ألا ليتَ ذا الحـال تَلْقى مِن الهوى عَشِيرَ[2] الذى أَلْقَى فيلتئمَ الحُبُّ
وِصالـكُمُ صَـــدٌّ وقُربكُمُ قِلًى وعطفـكُمُ سُخْطٌ وسِـلْمـكُمُ حَرْب

فقام المُعتصم على رجليْـه طَرباً ، وارتجّ بنا المَجلس الذى كُنّا فيه . ثم جَلس المُعتصم وقال : أحسنتَ والله يا عَم ما شئت ! فقال : إن كنتُ أحسنتُ يا أمير المؤمنين فهَبْ لى الجام الثالثة . فقال : خُذها . فأخذها . وقام أميرُ المؤمنين . فدعا إبراهيمُ بمِنْديل فشناه طاقتَيْن ووضع الجاماتِ فيه وشَدّه ، ودعا بطين فختمه ودَفعـه إلى غُلامه . ونَهضنا للانصراف ، وقُدِّمت دوابُّنا . فلمـا ركب إبراهيمُ الْتفت إلىّ وقال : يا محمـد بن الحارث ، زعمتَ أنّى لا أُحسن أنا وجاريتى شيئاً ، وقد رأيتَ ثمرة الإحسان ! فقلتُ فى نفسى : قد رأيتُ ، فخذها لا بارك الله لك فيها ! ولم أُجبه بشىء .

(١) المزة ، والقهوة ، والقرقف ، والشمول : كلها من أسماء الخمر . والراووق : الباطية للخمر . (٢) العشير : العشر ، وهو الجزء من عشرة .

ذكر خروج إبراهيم بن المهدى على المأمون

ثم ظفر المأمون به وعفوه عنه

تمهيد لابن واصل

ذكر أبو الفرج عَفْو المأمون عنه ولم يذكُر خُروجه ، فأردت أن أذكُر ذلك ملخصاً ؛ لأبنى عليه ما ذَكر أبو الفرج :

لما قُتل محمد الأمين بن الرَّشيد ، وَصَفَت الدُّنيا للمأمون ، وأجمع الناس على البَيعة له ، وهو إذ ذاك بخُراسان بمَرْو ، اُستوزر الفضلَ بن سَهل ذا الرِّياستين . فغَلب على المأمون غلبةً شديدة وحَجبه ، وصارت الأمور كُلها إليه . فأشار على المأمون أن يَجعل ولىَّ عهده والخليفةَ بعده الرِّضَى أبا الحَسن علىّ بن موسى ابن جَعفر بن محمد بن علىّ بن الحَسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . وأن يُغيِّر السوادَ الذى هو لُبْس آبائه ، ويَلبس الخُضرة ويأمر الناسَ بلِباسها . فأجابه المأمونُ إلى ذلك . واُستقدم المأمونُ علىَّ بن موسى . فقدم عليه . فأمر الناسَ بالبَيعة له ، ولقَّبه الرِّضى من آل محمد . وكَتب إلى الآفاق ببَيعته ، وأمر بأن يُخطب له على المَنابر بعده . وأمر الناسَ بلُبس الخُضرة ونَزْع السَّواد . ولما بَلغ أهلَ بغداد ومَن بها من بَنى العبَّاس كَرهوا نَقل الأمر عنهم إلى آل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتَرْك الشِّعار الذى هو شعارُهم . فخَلعوا المأمون من الخلافة ، وبايعوا بها عمَّه إبراهيم بن المهدى ، ولقّبوه المُبارك ؛ ووقعت الحربُ بين إبراهيم ابن المهدىّ وبين الحَسن بن سَهل نائب المأمون بالعراق ، واُضطربت الدُّنيا على المأمون . ولما بلغ المأمونَ ذلك نَدِم على ما فعل وعَلم أن الفَضل بن سهل هو الذى عليه الأُمور . فرَحل طالباً العِراق . فلما وصل إلى سَرْخس تواطأ جماعة على الفَضل بن سهل ، ففَتكوا به وهو فى الحمّام . ولما وصل إلى طُوس تُوفِّى علىّ

ابن موسى الرِّضى ولىّ عهده . فدَفنه عند أبيه الرَّشيد . وقد قِيل إن المأمون سَمَّه . والله أعلم . ولمّا وصل المأمونُ إلى بغداد تفرّق عن إبراهيم بن المهدىّ أصحابُه ، واستتر إبراهيم خوفاً على نفسه من المأمون . وكانت مُدة أيامه بالعراق سنةً وعشرة أشهر . ودَخل المأمونُ بغداد ، وقد انتظمت له الأُمور ، ولم يبق له مُنازع ، وعليه وعلى أصحابه الخُضرة . وأمر أهل بغداد بلُبسها ، فلَبِسوها . وأقام على ذلك أُسبوعاً ، ثم نزع الخُضرة ولبس السَّواد ، وأمر الناس بلُبسه ، وعادت الأُمور كما كانت عليه أولاً . وكان دُخول المأمون بغدادَ سنةَ أربعٍ ومائتين .

هو والمأمون لما ظفر به

وفى سنة عشرة ظَفِر بعمِّه إبراهيم بن المهدى . ولما ظَفر به أحَبَّ أن يُوبِّخه على رُءوس الناس . فجىء بإبراهيم بن المَهدىّ يَحجُل فى قُيوده . فوقَف على طَرَف الإيوان فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته . فقال : لا سَلَّم الله عليك ولا حَفِظك ولا رعاك ولا كَلأك يا إبراهيم ! فقال إبراهيم : على رِسْلك يا أمير المؤمنين ، فلقد أصبحتَ ولىَّ ثأرى ، والقُدرةُ تُذهب الحَفِيظةَ ، ومن مَدَّ له الاغترارُ فى الأمل هجمتْ به الأَناةُ على التَّلف ، وقد أصبح ذَنبى فوق كُلِّ ذنب ، كما أنَّ عَفوك فوق كُل عفو . فإن تُعاقِبْ فبحقِّك ، وإن تغفر[1] فبفضلك . فأطرق المأمونُ مليًّا ، ثم رفع رأسه فقال : إن هذين أشارا علىّ بقتلك . فالتفتَ فإذا المُعتصم والعبّاس بن المأمون . فقال : يا أمير المؤمنين ، أمّا حقيقة الرأى فى معظَم تدبير الخِلافة والسياسة فقد أشارا عليك به ، وما غَشّاك إذ كان منى ما كان ، ولكنّ اللهَ عوَّدك من العَفو عادةً جريتَ عليها دافعاً ما تخافُ بما ترجو ، فكفاك الله يا أمير المؤمنين . فتبسَّم المأمونُ وأقبل على ثُمامة بن أشرس ، ثم قال : إنّ من الكلام لما يَفُوق الدرَّ ويغلب السِّحر ، وإن كلام عمِّى منه ، أطلقوا عن عمِّى حديدَه ورُدُّوه إلىَّ مُكرَّماً . فلمّا رُد إليه قال : يا عمّ ، عُد إلى المُنادمة وارجع

(١) فى بعض أصول الأغانى : « وإن تعف » .

إلى الأُنس ، فلن ترَى منِّى أبداً إلّا ما تُحب . فلما كان من الغَد بَعث إليه بدَرْج [١] فيه هذه الأبيات :

يا خَيرَ من ذَمَلَتْ[٢] يمانيةٌ به ... بعد الرَّسول لآيسٍ أو طامِعِ
وأَبرَّ مَن عَبد الإلٰه على الهُدى ... نَفساً وأحكمه بحقٍّ صَادِعِ
عُسْلُ[٣] الفَوارع ما أُطعْتَ فإن تُهَجْ ... فالموتُ فى جُرَعِ السِّمام النَّاقع
مُتيقِّظاً حَذِراً وما تَخشى العِدا ... نَبْهانَ مِن وَسنات ليلِ الهاجِع
والله يعلمُ ما أقول فإنها ... جَهْدُ الأَلِيَّة من حَنيفٍ راكع
قَسماً وما أُدلى إليك بحُجَّة ... إلَّا التضرُّعَ من مُحبٍّ خاشع
ما إن عصيتُك والغُواة تَمُدّنى ... أسبابُها إلَّا بنِيَّة طائع
حتى إذا عَلقتْ حبائلُ شِقْوتى ... بِرَدَّى إلى حُفَر المَهالك دافِعى
لم أَدْرِ أنَّ لمِثل ذَنْبى غافراً ... فأقمتُ أرقُب أىَّ حَتْفٍ صارعى
رَدَّ الحياةَ إلىّ بعد ذَهابها ... وَرَعُ الإمام القاهر المُتواضع
أَحياك مَن ولّاك أطولَ مدَّة ... ورَمى عدوَّك فى الوَتين[٤] بقاطِع
إنّ الذى قَسَم الفضائلَ حازها ... فى صُلْب آدمَ للإمام السابع
كم مِن يدٍ لك لا تُحدِّثنى بها ... نَفسى إذا آلتْ إلىّ مَطامعى
أَدَّيتَها[٥] عفواً إلىّ هَنيئةً ... فشكرتُ مُصْطَنعاً لأكرمِ صانِع
ورَحمتَ أطفالاً كأفراخ القَطا ... وعَويلَ عانسةٍ كقوس النازع
وعفوتَ عمَّن لم يكن عن مثله ... عفوٌ ولم يَشفع إليك بشافع
إلا العُلُوّ عن العقوبة بعد ما ... ظَفِرت يداك بمُستكين خاضع

---

(١) الدرج : بالفتح ويحرك : ما يكتب فيه .
(٢) ذملت : سارت سيراً سريعاً ليناً .
(٣) أى حلو العطايا .
(٤) الوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه .
(٥) فى بعض أصول الأغانى : « أسديتها »

فبكى المأمونُ ، ثم قال : علىَّ به . فأُتى به . فخلع عليه وحمله وأمر له بخمسة آلاف دينار . ودعا بالفرّاش فقال له : إذا رأيت عمّى مُقبلاً فاطرح له تُكأة . فكان يُنادمهُ ولا يُنكر عليه شيئاً .

وقيل : إن إبراهيم لما خاطب المأمون بما خاطبه به ، دفعه إلى ابن أبى خالد الأحول وقال : هو صديقُك ، فخُذه إليك . فقال : وما تُغنى صداقتى عنه وأميرُ المؤمنين ساخطٌ عليه ، أمَا إنى وإن كنتُ صديقاً له لا أمتنع من قول الحقّ فيه . قال : قُل ، فإنك غير مُتَّهم . فقال ، وهو يريد التسلُّق إلى العفو عنه : إن قتلتَه فقد قتلتِ المُلوكُ قَبلك مَن هو أقلُّ جُرماً منه ، وإن عفوتَ عنه عفوتَ عمَّن لم يُعفَ قبلك عن مثله . فسكت المأمونُ ساعةً بيده ، ثم قال[1] مُتمثّلاً :

قَومى هُمُ قتلُوا أُميم أخى ... فإذا رميتُ أُصابنى سَهمى
فلئن عفوتُ لأعفوَنْ جَللاً ... ولئن ثأرتُ[2] لأُوهنَنْ عَظمى

خُذه إليك يا أحمد مُكرّماً . فانصرف به .

وذُكر أنّ المأمون تقدّم إلى محمد بن يَزْداد[3] ، لما أطلق إبراهيم بن المهدىّ ، أن يَمنعه دارَىِ الخاصّة والعامة ، ويُوكّل به رجلاً من قِبَله يَثق به ليُعرّفه أخبارَه . فكتب إليه الموكّل به : إن إبراهيم لمّا بلغه مَنعُه من دارَىِ الخاصّة والعامّة تمثّل :

[4]يا سَرحةَ الماء قد سُدَّت مَواردُه ... أمَا إليكِ طريقٌ غيرُ مَسْدُودِ
لِحائمٍ حامَ حتّى لا حِيامَ له ... مُحَلَّأٍ عن طريق الماء[5] مَرْدود

(١) هذه رواية التجريد . وفى غيره : « فسكت المأمون ساعة ثم قال » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ولئن سطوت » .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « مزداد » تحريف .
(٤) الشعر لإسحاق الموصلى . (٥) فى بعض أصول الأغانى : «مطرود» مكان « مردود» .

فلما قرأها المأمونُ بكى ، وأمر بإحضاره من وقته مُكرَّماً ، وأنزله مَنزلته[١] . فصار إليه محمد فبشّره بذلك وأمره بالرُّكوب ، فَركب . فلَما دَخل على المأمون قَبَّل البساط ثم قال :

البِرُّ بى منك وَطا العُذْرَ عندك لى ... دون اعتذارى فلم تعذل ولم تَلم
وقام علْمُك بى فاحتجَّ عندك لى ... مقامَ شاهدِ عَدْل غيرِ مُتَّهَم
رددتَ مالى ولم تَبْخل[٢] علىّ به ... وقبلَ ردِّك مالى قد حَقنتَ دمى
فبؤتُ منك وقد كافأتها بيد ... هى الحياتان من موتٍ ومن عَدم
لئن كفرتُك ما أوليتَ من نِعَم ... إنِّىَ باللؤم أولى منك بالكَرم
تَعفو بعَدْلٍ وتسْطو إن سطوت به ... فلا عدمناك مِن عافٍ ومُنْتقم

فقال له المأمون : اُجلس يا عمّ آمناً مطمئنا ، فلن تَرى منِّى أبداً ما تكره ، إلا أن تُحْدث حَدَثا أو تتغيّر عن طاعة ؛ وأرجو ألّا يكون ذلك إن شاء الله .

هو وابن بسخنر ومخارق مع المأمون

وحَكى محمدُ بن الحارث بن بُسْخُنَّر قال :

لمّا قَدم المأمونُ من خُراسان لم يَظهر لمُغنٍّ بمدينة السلام غيرى ، فكنتُ أُنادمه سرًّا ، ولم يَظهر للنُّدماء حتى ظَفِر بإبراهيم بن المهدى ، فلما ظَفر به وعفا عنه ظَهر للنُّدماء . ثم جَمعنا ووجَّه إلى إبراهيم . فَحضر فى ثياب بِذْلته[٣] . فلما رآه المأمونُ قال : ألْقِ عمِّى رداء الكِبْر عن مَنْكِبيه . ثم أمر له بخِلَع فاخرة وقال : يا فَتْح ، غَدِّ عَمِّى . فتغدَّى إبراهيم بحيث يراه المأمون . ثم تحوّل إلينا . وكان مُخارق حاضراً ، فغنَّى مخارق بشعر عدىّ بن زيد :

هذا ورُبَّ مُسوِّفين[٤] صبحتُهم ... من خَمر بابلَ لذةً للشارِبِ

(١) فى بعض أصول الأغانى : « وإنزاله فى مرتبته » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ولم تمنن » . (٣) فى بعض أصول الأغانى : « مبتذلة » .
(٤) المسوف : الصابر .

بَكروا علىّ بسُحرةً فصَبحتُهم ... بإناء ذى كَرَم كَقَعْب الحالِب
بزُجاجةٍ مِلْء اليَدين كأنّها ... قِنْديلُ فِصْحٍ فى كَنيسة راهب

فقال إبراهيم بن المهدى : أسأت ! فأعده . فأعاده . فقال : قاربتَ ولم تُصب . فقال له المأمون : إن كان أساء فأَحْسِن أنت . فغنّاه إبراهيمُ . ثم قال لمُخارق : أعده . فأعاده . فقال : أحسنت ! ثم قال للمأمون : كم بين الأمرين؟ قال : كثير . فقال لمخارق : إنما مثلُك مثلُ الثوب الفاخر إذا غَفل عنه أهلُه وقع عليه الغُبار فأحال لونَه ، فإذا نُفِض عاد إلى جوهره . قال: ثم غنّى إبراهيم :

يا صاحِ ياذا الضامرِ العَنْسِ ... والرَّحْل ذى الأقتاد والحِلْس[1]

قال : وكانت لى جائزةٌ قد خَرجت ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، تأمر سيِّدى بإلقاء هذا الصوت علىّ مكانَ جائزتى ، فهو أحبُّ إلىّ منها . فقال : يا عم ، أَلْقِ هذا الصوتَ على مُحمد[2] . فألقاه علىّ ، حتى إذا كدت أن آخُذه ، قال : اذهب ، فأنت أحذق الناس به . فقلت : إنه لم يَصِحّ لى بعـــد . قال : فاغْدُ علىّ . فغدوتُ عليه ، فغنّاه متلوِّياً . فقلت : أيها الأمير ، لك فى الخلافة ما ليس لأحد ، أنت ابنُ الخليفة وأخو الخليفة وعَمّ الخليفة ، تجود بالرغائب وتبخل علىّ بصوت ! فقال : ما أحمقك ، إن المأمون لم يَسْتَبقنى محبةً لى ولا صلةً لرحمى ولا رِباءً للمعروف عندى ، ولكنّه سَمع من هذا لجزْم ما لم يَسمعه من غيره . قال : فأعلمتُ المأمون بمقالته ، فقال : إنّا لا نُكَدِّر على أبى إسحاق عَفْونا عنه ، فدَعْه .

فلما كانت أيامُ المعتصمُ نَشِط للصَّبوح يوماً . فقال : أحضروا عمِّى . فجاء فى

(١) الضامر : يوصف به الجمل والناقة . والعنس : الناقة الصلبة القوية . والحلس : ما يوضع تحت الرحل والقتب والسرج .

(٢) هذه رواية التجريد . ومحمد ، هو ابن بسخنر ، راوى الحديث . وفى غير التجريد : « مخارق » .

دُرّاعة بغير طَيْلسان . فأعلمتُ المُعتصم خبر الصوت سرًّا . فقال : يا عم ، غَنِّنى :

* يا صاحِ ياذا الضامر العَنْس *

فغنّاه . فقال : أَلْقه على محمد . فقال : قد فعلتُ ، وسَبق منِّى قولٌ ألاَّ أُعيده عليه . ثم كان يتجنّب أن يُغنِّيه حيث أحضرُه .

هو والأمين ولحن أخذه عن اسحاق

وحَكى عبدُ الله بن عيسى الماهانى ، قال :

دخلتُ يوماً على إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ فى حاجةٍ فرأيتُ عليه مِطْرف خَزٍّ أسود ما رأيتُ قطُّ أحسنَ منه ، فتحدَّثنا إلى أن أخذْنا فى أمر المِطرف ، فقال : لقد كانت لكم أيامٌ حَسنة ودولةٌ عَجيبة ، فكيف ترى هذا ؟ فقلت له : مارأيت مثلَه . فقال : إن قيمته مائة ألف درهم ، وله حديث عجيب . فقلت له : ما أقوّمه إلا بمائة دينار . فقال لى إسحاق : أسمع حديثه : شربتُ يوماً من الأيام فبتُّ وأنا مُثْخَن ، فانتبهت لرسول محمد الأمين ، فدَخل علىّ فقال : يقول لك أمير المؤمنين : عَجِّل إلىّ ـ وكان بخيلاً على الطَّعام ، فكنت آكُل قبل أن أَذهب إليه ـ فقُمتُ فتسوّكتُ وأَصلحتُ أَمرى ، وأَعجلنى الرسولُ عن الغِداء ، فدخلتُ عليه ، وإبراهيمُ ابن المهدىّ جالسٌ عن يمينه ، وعليه هذا المِطرف وجُبّة خَزّ دَكناء . فقال لى محمد : ياإسحاق ، تغدَّيت ؟ فقلت : نعم ، ياسيدى . فقال : إنك لنَهِم ، أهذا وقتُ غَداء ! فقلتُ : أصبحتُ يا أمير المؤمنين وبى خُمار ، فكان ذلك ممّا حَدانى على الأكل . فقال لهم : كم شربنا ؟ فقالوا : ثلاثة أرطال . فقال : أسقوه إياها . فقلت : إن رأيتَ أن تفرّقها علىّ ! فقال : يُسقى رِطْلين ورِطلاً . فدُفع إلىّ رطلان ، فجعلتُ أشربهما وأنا أتوهّم أنّ نفسى تَسيل معهما . ثم دُفع إلىّ رِطلٌ آخر ، فشربتُه ، فكأَن شيئاً انجلى عنّى . فقال : غَنِّ .

كُليبٌ لَعمرى كان أكثر ناصراً وأيسر جُرْماً منك ضُرِّج بالدَّمِ

فغنّيته . فقال : أحسنتَ ! وطَرِب وشرب . ثم قام فدَخل ، وكان يفعل ذلك كثيراً ، يدخُل إلى النِّساء ويَدعنا . فقُمْت فى إثر قِيامه ، فدعوتُ غلاماً لى فقلتُ : اُذهب إلى بيتى وجِئْنى ببِزْماوَردَتَيْن[1] ولُفَّهما فى مِنديل، واُذهب ركضاً وعَجِّل . فمضَى الغلام فجاءنى بهما . فلما وافى البابَ ونزل عن الدَّابة انقطع البرذونُ فنَفق من شدّة ما رَكَضه ، وأَدخل إلىّ البِزْما وَرْدَتين، فأكلتُهما ، ورجعتْ إلىّ نفسى ، وعدتُ إلى مجلسى . فقال لى إبراهيم : إنّ لى إليك حاجةً أُحبّ أن تَقضيَها لى . فقلت: إنما أنا عبدُك وابنُ عبدك ، فقُل ما شئتَ . فقال : تَرُد علىّ :

* كُليبٌ لَعمرى كانَ أكثرَ ناصرا *

وهذا المِطْرف لك . فقلت : أنا لا آخُذ منك مِطْرفاً على هذا ، ولكنّى أصير إليك إلى منزلك وأُلقيه على الجوارى وأُردّه عليك مراراً . فقال : أُحب أن تَردّه علىّ الساعةَ وأن تأخذ هذا المِطْرف ، فإنه من لُبْسك ومن حاله كذا وكذا . فرددتُ عليه الصوتَ مراراً حتى أَخذه . ثم سَمِعنا حركة محمد ، فقُمنا حتى جاء فجلس ، ثم قَعد وقَعدنا ، فشَرب وتحدّثنا . فغنّاه إبراهيم :

* كليبٌ لعمرى كان أكثر ناصرا *

فكأنى والله لم أَسمعه قبلَ ذلك حسناً . وطَرِب محمد طرباً عجيباً وقال : أحسنت والله يا عم ! يا غلام ، أَعطه عَشْر بدَر الساعة . فجاءوا بها . فقال: يا أمير المؤمنين، إن لى فيها شريكاً . قال : ومَن هو ؟ قال : إسحاق . قال : وكيف ؟ قال : إنما أخذتُه الساعةَ منه لمّا قُمتَ . فقلت له : ولِمَ ! أضاقت الأموالُ على أمير المؤمنين حتى يُشركك فيما تُعطاه ! فقال : أمّا أنا فأُشركك ، وأميرُ المؤمنين أعلم . فلما انصرفنا من المجلس أعطانى ثلاثينَ ألفَ درهم وأَعطانى هذا المِطرف . فهذا أخذتُه بمائة ألف درهم ، وهى قيمته .

(١) البزما ورد : طعام يصنع من اللحم المقلى بالزبد والبيض ، ويسمى : « لقمة القاضى » و« لقمة الخليفة » .

وهو الرشيد وجارية على بئر عروة

وحكى إبراهيم بن المهدىّ قال :

حججتُ مع الرشيد ، فلما صِرْنا بالمدينة خرجتُ أدور فى عَرَصاتها ، فأنتهيتُ إلى بئر ، وقد عطشتُ ، وجاريةٌ تَستقى منها . فقلت : يا جارية ، أمتَحى لى دلواً . فقالت : أنا والله عنـــك فى شُغل بضريبةٍ لموالىّ علىّ . فنقرتُ بسوطى على سَرْجى وغنّيت :

رام قلبى السُّلوَّ عن أسماءِ ... وتعزَّى وما به من عَـزَاءِ
سُخْنَةٌ فى الشتاء باردةُ الصيـ ... ـف سِراجٌ فى اللَّيلة الظَّلماء
كفِّنانى إن مُتُّ فى دِرْعٍ أروى ... وامتَحا لى من بِئر عُروة مائى

والشعرُ للأحوص بن محمد الأنصارى . وتمام الأبيات :

إنّنى والذى تَحُجّ قـريشٌ ... بيتَه سالكين نَقْبَ[1] كَدَاءِ
لَمُلِمٌّ بها وإن أُبْتُ منهـا ... صادراً كالذى وَردتُ بدائى
ولهـا مَرْبَعٌ[2] ببُرْقه خاخٍ ... ومَصيفٌ بالقَصْر قصر[3] قُباءِ
قلبتْ لى ظَهْرَ المِجَنِّ فأمستْ ... قد أطاعتْ مقالةَ الأعـداء

قال : فرفعت الجارية رأسها إلىّ وقالت : أتعرف بئر عُـرْوة ؟ قلت : لا . قالت : هذه والله هى بِئْر عُروة . ثم سقتنى حتى رَويتُ ، وقالت : إن رأيتَ أن تُعيـده ؟ ففعلتُ . فطَربتْ وقالت : واللهِ لأحملنّ قِربَةً إلى رَحلك . فقلت : أفعلى . ففعلتْ وجاءت معى تَحملها . فلما رأتِ الجيش والخـدَم فزعتْ . فقلتُ : لا بأس عليك ! وكسوتُها ووهبتُ لهـا دنانيرَ وحبستُها عندى . ثم صِرْت إلى الرشـيد ، فحدّثته حديثَها . فأمر بابتياعها وعِتْقها . فما برحتْ حتى اشـتُريت وأُعتقت . وأخذتُ لها صلةً منه وافترقنا .

(١) كداء : بأعلى مكة . (ياقوت) . (٢) برقة خاخ : قرب المدينة .
(٣) قباء : موضع قرب المدينة .

حديث رؤيته علياً فى النوم

وذُكر أن إبراهيم بن المهدىّ كان شديد الانحراف عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فحدَّث المأمونَ يوماً أنه رأى فى المنام علياً رضى الله عنه ، فقال له : مَن أنت ؟ فأخبره أنه علىّ بن أبى طالب . قال : فمَشَينا حتى جِئْنا إلى قنطرة فذهب يتقدّمنى لعبُورها . فأمسكتُه وقلت له : إنما أنت رَجلٌ تَدَّعى هذا الأمر بامرأة ، ونحن أحقُّ به منك ! فما رأيتُ له فى الجواب بلاغةً كما يُوصف عنه . فقال المأمون : وأىّ شىء قال لك؟ قال : ما زادنى على أن قال : سلاماً . فقال المأمون : قد والله أجابك أبلغَ الجواب. قال : وكيف؟ قال: عرَّفك أنك جاهل لا تُجاب . قال الله عز وجل : (وإذا خاطَبهم الجاهلون قالوا سَلاماً) . فخجل إبراهيمُ وقال : ليتنى لم أحدِّثك بهذا .

هو والرشيد فى شؤم اسمه

وحكى إبراهيم بن المَهدىّ قال :

كنت بين يدى الرَّشيد جالساً على ظهر حَرَّاقة، وهو يريد الموصلَ، وقد بلغنا إلى السَّواد ، فأُنبه[1] ، والمدَّادون يَمُدّون السُّفن، والشَّطْرنج بينى وبينه ، والدَّستُ متوجِّه له ، إذ أطرق هُنيهةً ثم قال لى : يابن أُمّ ، ماأحسَنَ الأسماء عندك ؟ قلت: محمد، اسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . قال : ثم أى شىء بعده ؟ قلت : هارون ، اسم أمير المؤمنين . قال : فأقبح[2] الأسماء ما هو ؟ قلت : إبراهيم . فزجرنى ثم قال: ويحك ! أتقول هذا ! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرّحمن ؟ فقلت : بشؤم هذا الاسم لقى من نَمْرودَ ما لقى ، وطُرح فى النار . قال : فإبراهيم ، ابنُ النبىّ صلى الله عليه وسلم ؟ قلت: لا جرمَ ! إنه لم يُعمَّر من أجله . قال : فإبراهيم الإمام . قلت : بشؤم اسمه قَتله مروانُ فى حَرّان . وأزيدك يا أمير المؤمنين : إبراهيم بن الوليد ، خُلع ؛ وإبراهيم بن عبد الله بن حسن ، قُتِل ؛ وعمه إبراهيم بن حسن ، سقَط عليه

(١) هذه رواية التجريد . وفى غيره : « السودقانية » على أنها كلمة واحدة لموضع من المواضع .
(٢) فى بعض الأصول : « فأسمج » .

السجن فمات؛ وما رأيت والله أحداً بهذا الاسم إلّا قُتل أو نُكب، أو رأيته مضروباً أو مَقذوفا أو مَظلوما . فما انقضى كلامى حتى سمعتُ ملّاحاً يَصيح بآخر : يابراهيم، مُدَّ ويلك ! ثم أعاد : ويلك يابراهيم مُد ! ثم أعاد : يابراهيم يا عاضّ بظر أُمه مُدَّ ! فقلت له :أبقى لك شىء بعد هذا ! ليس والله فى الدنيا اسم أشأم من إبراهيم والسلام. فضحك والله حتى أشفقتُ عليه .

تعريضه بالحسن ابن سهل وهو يغنى فى حضرة المأمون

وذُكر أنه دخل الحسنُ بن سهل على المأمون وهو يشرب ، فقال له : بحياتى وبحقّى عليك يا أبا محمد ، إلّا شربتَ معى قَدَحاً ـ وصبّ له من نَبيذه قدحاً ـ فأخذه بيده وقال له : مَن تُحِبّ أن يُغنّيك ؟ فأومأ إلى إبراهيم بن المهدىّ . فقال له المأمون : غَنِّ يا عَمّ . فغنّاه :

* تَسمع للحَلْى وَسواساً إذا انصرفت *

يُعرِّضُ به لِما كان لحقه من السَّوداء والاختلاط . فغضب المأمونُ حتى ظن إبراهيمُ أنه سيُوقع به . ثم قال له : أبيتَ إلا هُزؤاً يا أكفر خَلق الله لنِعَمه ! والله ما حَقَن دَمك غيرُه ، ولقد أردتُ قتلَك فقال لى : إن عَفوتَ عنه فعلتَ فعلاً لم يَسبقك إليه أحد . فعفوتُ عنك لقوله ، أفحقُّه أن تُعرِّض به ولا تَدع كيدك ودَغَلك ، أو أَنِفْتَ من إيمائه إليك بالغِناء . فوثب إبراهيم قائماً وقال : يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيثُ ظننتَ ، ولستُ بعائد . فأعرض عنه .

هو وجارية لبعض أهله

وَذُكِرَ أن إبراهيم بن المهدى لما استتر خوفاً من المأمون كان عند بَعض أهله من النِّساء ، فوكّلت بخدمته جارية جميلة وقالت لها : إن أرادك لأمرٍ فطاوعيه وأَعلميه ذلك حتى يتّسع له . فكانت تُوفّيه حقه فى الخِدمة والإعظام ولا تُعلمه بما قالت لها . فَجلّ مقدارُها فى نفسه إلى أن قَبّل يوماً يدَها . فقبّلت الأرضَ بين يديه ، فأنشد :

يا غَزالاً لى إليـــه شـــافعٌ من مُقْلَتَيْهِ
والذى أجْلَلْتُ خَدَّ يه فقبَّلتُ يدَيْـه
بأبى وجهُك ما أكـ ثر حُسّادى عليْـه
أنا ضيفٌ وجزاء الضَّـ يف إحسانٌ إليه

غنى المأمون فرق له

وذُكر أن إبراهيم بن المهدى غنّى يوماً والمأمونُ مُصطبح ، وقد كان خافه و بلغه عنه تَنَكُّره :

ذَهبتُ من الدُّنيا وقد ذهبتْ منِّى هَوَى الدهرُ بى عنها وولّى بها عنِّى

فرَقّ له المأمونُ لمّا سَمِعـــه وقال له : لا والله لا تذهب نفسُك على يد أمير المؤمنين ، فطِبْ نفساً ، فإن الله عزّ وجلّ قد أمّنك ، إلّا أن تُحْدِث حَدَثاً يشهد عليك فيه عَدْلٌ ، وأرجو ألاّ يكون منك حَدَث إن شاء الله .

أجازه الأمين وقد غنـاه فى شـعر أبى نواس

وذُكر أن إبراهيم بن المهدى غنّى محمداً الأمين ليلة فى شعر أبى نُواس ، وهو:

يا كَثِيرَ النَّوحِ فى الدِّمَن لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنّة العُشّاق واحـــدةٌ فاذا أحببتَ (١) فاسْتَبِن
ظَنّ بى من قـد كَلِفْتُ به فهـو يَجْفُونى على الظِّـنَن
رَشـــأٌ لولا مـــلاحتُه خَلَتِ الدُّنيا من الفِتَن
كلّ يومٍ يســـترقُّ له حُسنُه عبداً بلا ثمن

وهذه الأبيات يمدح بها أبو نُواس محمداً ، وتمامها :

فاسقنى راحاً على عذل كرهتْ مَسْموعه أُذنى
من كُميتِ اللون صافية خير ما سَلسلت فى بدنى
تضحك الدُّنيـــا إلى ملك قام بالآثار والسُّـــنن

(١) فى بعض أصول الأغانى : « فاستكن » .

أنت تبقى والفناء لنـــا فإذا أفنيتنـــا فكُن
كيف تسخو النفس عنك وقد قُمت بالغـــالى من الثمن

فأمر محمد لعمّه إبراهيم بثلثمائة ألف درهم . فقال له إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أجزتنى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم . فقـال محمد : وهل هى إلّا خَراج بعض الكُوَر !

وقد حُكى عن إبراهيم أنه قال :

لما أردتُ الانصراف قال : أَوقروا زَورقَ عَمِّى دنانيرَ ، فأُنصرفتُ بمال كثير .

وفاته وحديث ابنه مع المعتصم عنه

وتوفى إبراهيم بن المهدى فى خلافة ابن أخيه المُعتصم بالله . فحكى إبراهيمُ بن هبة الله بن إبراهيم بن المهدى قال :

قلتُ للمعتصم : كانت لأبى أشياء لم يكن لأحدٍ مثلها . فقـال : وما هى ؟ فقلت : شارية وزامرتُها مَعْمَعة . فقال : أما شارية فعندنا ، فما فعلت الزامرة ؟ فقلت : ماتت . قال : وماذا؟ قلت : وساقيته مكنونة ، ولم يُرَ أحسنُ وجهاً منها ، ولا ألينُ ولا أظرف . قال : فما فعلت ؟ قلت : ماتتْ ، قال : وماذا ؟ قلتُ : نخلةٌ كانت تَحمل رُطَباً طولُ الرُّطَبة منها شبر . قال : فما فعلت ! قلت : جَمَّرتُها [1] بعد وفاته . قال : وماذا ؟ قلت : قَدَحه الضَّحْضاح . قال : وما فعل ؟ قلت : الساعةَ والله حَجمنى فيه أبو حَرْملة ، فسألتُه أن يهبه لى ففعل . فوجّهتُ به إلى منزلى فغُسل ونُظِّف وأُعيد إلى خزانتى . فرأيتُ أبى فيما يرى النائمُ فى ليلتى تلك ، وهو يقول لى :

أيُترع ضَحْضاحِى دماً بعدما غَدتْ علىّ به مكنونةٌ مُتْرَعاً خَمرَا
فَإنْ كنتَ منّى أو تحب [2] مبرتى فلا تُغفلنْ قبل الصَّباح له كَسرا

قال : فأنتبهتُ فزعاً ، وما فَرَق [3] الصبح حتى كسرتُه .

(١) أى قطعت جمرها . (٢) فى بعض أصول الأغانى : «مسرتى» . (٣) فرق : اتضح وتبين .

أخبار أبي النجم العجلي

نسبه

أسمه المُفضَّل — وقيل : الفَضل — بن قُدامة بن عُبيد الله بن عبد الله بن الحارث بن عبدة بن الحارث بن إياس[1] بن عَوف بن رَبيعة بن مالك بن رَبيعة ابن عِجْل بن لَجيم بن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أَفْصى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة بن أَسد بن رَبيعة بن نِزار .

منزلته فى الرجز

وهو من رُجَّاز الإسلام الفُحول المتقدِّمين[2] ، وفى الطبقة الأولى منهم .

رأى ابن العلاء فيه

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول :

هو أبلغ فى النَّعت من العجَّاج .

رأى أبى عبيدة فيه

وقال أبو عُبيدة :

ما زالت الشُّعراء تَقْصر[3] بالرُّجَّاز حتى قال أبو النجم :

* الحمدُ لله الوَهوب المُجْزِل *

وقال العجاج :

* قد جَبر الدِّينَ الإلهُ فجَبرْ *

وقال رؤبة :

* وقاتم الأَعماق خاوى المُخْتَرَقْ *

---

(١) فى غير التجريد : « الياس » .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « المقدمين » .

(٣) فى بعض أصول الأغانى : « تغلب » مكان « تقصر بالرجاز » .

فانتصفوا منهم .

إعظام رؤبة له

وذُكر أنّ فِتياناً من بنى عِجْل قالوا لأبى النَّجم : هـذا رُؤْبة بن العجّاج بالمِرْبَد[1] يَجلس يُسمع شعرَه ويُنشد الناسَ ، ويَجتمع إليه فتيانٌ من بنى تميم ، فما يَمنعك من ذلك ؟ فقال : أَوَ تُحبون هذا ؟ قالوا : نعم . قال : فأْتونى بعُسٍّ[2] من نَبِيذ . فأَتَوْه به . فشَربه ثم نَهض ، وقال :

إذا اصطبحتُ أربعاً عَرفْتَنِي ثم تجشَّمتُ الذى جَشَّمتنى

فلما رآهُ رُؤْبة أعظمه وقام له عن مكانه ، وقال : هذا رَجّاز العرب . وسأَلوه أن يُنشدهم . فأنشدهم أبو النجم :

* الحمدُ لله الوَهوب المُجزل *

وكان إذا أنشد أَزبد ورَمَى بثيابه . وكان مِن أحسن الناس إنشاداً . فلمّا فرغ منها قال : هذه أُمّ الرَّجز . ثم قال : يا أبا النَّجم ، قد قَرَّبت مَرعاها إذ جَعلتَها بين رجل وابنه . يُوهِم عليه رؤْبةُ أنه حيث قال :

تبقَّلتْ مِن أول التَّبقُّل بين رِمَاحَىْ مالكٍ ونَهشلِ

أنه يريد نَهشلَ بن مالك بن حَنظلة بن زيد مناة بن تميم . فقال له أبو النجم : هيهات ! إنما أُريد مالكَ بن ضُبيعة بن قَيس بن ثَعلبة بن عُكابة بن صَعَب ابن علىّ بن بكر بن وائل . ونَهشل قبيلة من ربيعة[3] .

---

(١) يريد : مربد البصرة : وهو من أشهر محالها ، كان سوقاً للإبل ، ثم كانت به مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . (٢) العس : القدح الكبير .

(٣) وكان سبب ذكر هاتين القبيلتين — فيما ذكر أبو عمرو الشيبانى — أن دماء كانت بين بنى دارم وبنى نهشل ، فتحامى جميعهم الرعى بين فلج والصمان مخافة الشر ، حتى عفا كلؤه وطال . فجاءت تسير بنوعجل لعزها إلى ذلك الموضع فرعته ، ولم تخف من هذين الحيين . ففخر بهم أبو النجم.

مناجزته العجاج وهرب العجاج منه

وذُكر أن العجّاج خَرج مُتحفِّلاً[1] ، عليه جُبة خَز وعمامة خَز ، على ناقة له قد أجاد رَحْلها ، حتى وقف بالمِرْبد والناس مجتمعون ، فأنشدهم قولَه :

* قد جَبر الدينَ الإلهُ فجَبَر *

فذَكر فيها ربيعةَ وهَجاهم . فجاء رجلٌ من بنى بكر بن وائل إلى أبى النَّجم ، وهو فى بيته ، فقال له : أنت جالسٌ وهذا العجّاج يَهجونا فى المِرْبد قد اُجتمع عليه الناسُ ! فقال : صف لى حالَه . فوَصفه له . فقال : اُبْغِنى جَملاً طَحّاناً قد أُكثر عليه من الهِناء[2] . فجاء بالجَمل إليه . فأخذ سراويلَ له ، فجَعل إحدى رجلَيْه فى السّراويل وأُتزر بالأُخرى ، ورَكب الجمل ودَفع خِطامَه إلى مَن يقوده . فانطلق حتى أتى المِرْبد . فقال : اُخْلع خِطامه . فخَلعه . فأنشد :

* تذكَّر القلبُ وجهلاً ما ذَكَرْ *

فجعل الجملُ يدنو من الناقة يتشمَّمها ، ويتباعد عنه العجّاج لئلّا يُفسد ثيابَه ورَحْلَه بالقَطِران . حتى إذا بلغ إلى قوله :

* شيطانُه أُنثى وشَيطانى ذَكَرْ *

تَعلّق الناسُ هذا البيتَ وهَرب العجّاج منه .

بز الشعراء عند عبد الملك وظفر بالجارية

وذُكر أنه كان عند عبد الملك بن مروان — أو اُبنه سليمان — جماعةٌ من الشُّعراء ، وفيهم أبو النَّجم والفرزدقُ ، فقال : مَن صبَّحنى بقَصيدة يفتخر فيها وصدَق فى فَخره فله هذه الجاريةُ . قالوا : نعم . فقاموا على ذلك ، ثم قالوا : إن أبا النَّجم يَغلبنا بمُقطَّعاته ! — يعنون الرجز — فقال : فإنِّى لا أقول إلّا قصيداً . فقال مِن ليلته قصيدتَه التى يَفخر فيها ، وهى :

* عَلِق الفؤادُ حبائلَ[3] الشَّعثاء *

(١) متحفلا : متزيناً . (٢) الهناء : القطران .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « علق الهوى بحبائل » .

ثم أصبح فدَخل عليه ، ومعه الشُّعراء ، فأنشده ، حتى إذا بلغ إلى قوله :

منّا الذى رَبَع الجُيوشَ[1] لصُلبه عِشْرُون وهو يُعَدُّ فى الأحياء

فقال له : قِفْ ، إن كنتَ صدقتَ فى هذا البيت فلا نُريد ما وراءه . فقال الفرزدق : أنا أعرف منه ستةَ عشر ، ومن وَلَد وَلَده أربعة ، كلُّهم قد رَبَع . فقال عبدُ الملك ـ أو سُليمان ـ : وَلَد وَلَده هم ولدُه ، أدفع إليه الجارية يا غُلام . فغَلبهم يومئـذ .

حديث أخذه جارية من خالد القسرى

وذكر أنه بَعث الجُنَيدُ بن عبد الرحمن المُرِّى إلى خالد بن عبد الله القَسْرىّ بسَبْيٍ من الهند بِيضٍ . فجَعل يَهب لأهل البيت كما هو للرَّجل من قُريش ومن وُجوه النـاس ، حتى بقيتْ جاريةٌ منهنّ جميلةٌ كان يدّخرها وعليها ثيابُ أرْضِها فُوطتان . فقال لأبى النجم : هل عندك فيها شىء حاضر وتأخذها الساعة ؟ قال : نعم ، أصلحك الله . فقال العُرْيان بن الهَيثم النَّخَعِىّ : كذَب ! والله مايقدر على ذلك — وكان على شُرَط خالد بن عبد الله — فقال أبو النَّجم :

عَلِقتُ خُوداً من بنات[2] الزُّطِّ ذاتَ جَهَازٍ مُضْغَطٍ[3] مُلَطِّ
رابِى المَجَسِّ جَيِّد المَحطِّ كأنما قُطّ على مِقَطِّ
إذا بَدا منه الذى تُغَطِّى كأنّ تحتَ ثوبها[4] المُنْعَطِّ
شَطًّا رميتَ فوقه[5] بشَطِّ لم يَعْلُ فى البَطْنِ ولم يَنْحَطِّ
فيه شِفاء من أذى التَّمطِّى كهامةِ الشَّيخ اليَمانى[6] الثَّطِّ

وأومأ بيده إلى هامة العُريان بن الهيثم . فضَحك خالدٌ وقال للعُريان : هل تُراه احتاج أن يُروِّى[7] فيها ياعُريان ؟ فقال : لا والله ، ولـكنّه مَلْعون ، ابن مَلعون !

(١) ربع : أخذ ربع الأموال ، وكان ذلك حظ الرئيس . والرواية فى غير التجريد : «لظهره» مكان « لصلبه » . (٢) الزط : جيل من أهل الهند .
(٣) الجهاز ، هنا : فرج المرأة . وملط : مستور . (٤) المنعط : المنشق .
(٥) الشط : جانب السنام . (٦) الثط : الخفيف اللحية . (٧) يروى : يفكر .

غضب هشام عليه ثم رضى عنه

وذُكر انّ أبا النّجم ورد على هشام بن عبد الملك فى الشُّعراء . فقال هشام : صِفوا إبلاً فقطّروها[1] ، وأوْردوها وأصدروها ، حتى كأنى أنظُر إليها . فأنشدوه . وأنشده أبو النجم قصيدته :

* الحمدُ لله الوَهوب المُجزل *

حتى بلغ إلى ذكر الشَّمس فقال :

* فهى على الأُفْق كعين ... *

وأراد أن يقول « الاحول » ، ثم ذَكر حَوْلَة هِشام ، فلم يُتم البيتَ وأُرتج عليه . فقال هشام : أجِز . فقال : « كعين الأَحول » وأتمّ القصيدة . فأمر هشام بوَجْء[2] عُنقه و إخراجه من الرُّصافة . وقال لصاحب شرطته : يا ربيع ، إياك وأن أرى هذا ! فكلّم وجوهُ الناس صاحبَ شُرطته أن يُقرّه ، ففعل . فكان يُصيب من فُضول أَطعمة الناس و يأوى إلى المساجد .

قال أبو النَّجم : ولم يكن بالرُّصافة أحدٌ يُضيفُ إلّا سُلَيْمَ بن كَيْسان الكَلْبى ، وعَمرو بن بِسْطام التَّغلَبى ، فكنت آتى سُلَيما فأتغدّى عنده ، وآتى عَمْراً فأتعشى عنده ، وآتى المسجدَ فأبيت فيه . فاهتمّ هشامٌ ليلةً وأمسى لَقِسَ النَّفس ، وأراد مُحدِّثاً يُحدِّثه ، فقال لخادم له : اَبغنى مُحدِّثاً أعرابيّا أهوجَ شاعراً يَروى الشعر . فخرج الخادمُ إلى المسجد ، فإذا هو بأبى النَّجم ، فضَربه برجله وقال : قُم أَجب أميرَ المُؤمنين . قال : إنى أعرابىٌّ غريب . قال : إياك أبغى ، هل تروى الشعر ؟ قال : نعم ، وأقولُه . فأقبل به حتى أدخله القَصر ، وأغلق البابَ . فأيقن الشرَّ . ثم مَضى به فأدخله على هشام فى بَيت صغير ، بينه و بين نسائه سِتْرٌ رقيق ، والشَّمع بين يديه تزْهَر . فلما دَخل ، قال له هِشام : أبو النَّجم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ،

(١) قطروها : أى اجعلوها قطاراً على نسق . (٢) الوجء : الضرب .

طريدُك . قال : أجلس . فسأله وقال له : أين كنت تأوى ؟ وأين منزلُك ؟ فأخبره الخبرَ . فقال : وكيف أجتمعا لك ؟ قال : كنت أتغدّى عند هذا ، وأتعشّى عند هذا . قال : فأين كنت تَبيت ؟ قال : فى المسجد حيث وَجدنى رسولُك . قال : وما لَك من الولد والمال ؟ قال : أما المال فلا مال لى ، وأمّا الولد فثلاث بَنات ، و بُنيّ يُقال له : شَيبان . فقال : هل زَوَّجتَ من بناتك أحداً ؟ قال : نعم ، زوّجت اثنتين و بقيتْ واحدة تَجْمِز [1] فى أبياتنا كأنها نَعامة . قال : وما وَصَّيت به الأُولى ؟ فقال : قلت :

أوصيتُ من بَرّةَ[2] قلباً حُرّا ... بالكَلب خيراً والحَماةِ شَرّا
لا تَسأمى ضَرباً لها وجَرّا ... حتى تَرىْ حُلو الحياة مُرّا
وإن كسبْتِ ذهباً ودُرّا ... والحىَّ عُمِّيهم بشَرٍّ طُرّا

فضحك هشام ، وقال : فما قلت للأخرى ؟ فقال : قلت :

سُبِّى الحماة وأُبْهَتى[3] عليها ... وإن دَنَتْ فأُزدلفى إليها
وأوجعى بالفِهْر[4] رُكبَتَيْها ... ومِرْفَقيها واُضربى جَنْبَيها
وظَاهِرى النُّذْرَ[5] لها عليها ... لا تُخبرى الدَّهرَ به أُبنَتَيْها

فضحك هشام حتى بدت نَواجذُه وسَقط على قَفاه ، وقال : ويحك ! ما هذه وصية يعقوبَ ولدَه ؟ فقال : لا ، وما أنا كيعقوب يا أمير المؤمنين ! قال : فما قلتَ للثالثة ؟ قال : قلت :

أُوصيكِ يا بنتى فإنّى ذاهبُ ... أُوصيك أن تَحْمَدَك القَرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريمُ الساغب ... لا يُرْجَع المِسْكينُ وهو خائب

(١) تجمز : تعدو وتسرع . (٢) برة ، هواسمها . (٣) ابهتى : افترى .
(٤) الفهر : الحجر . (٥) النذر ، بالضم : الاسم من « أنذر » ، أى توعد .

ولا تَنِى أظفارُكَ[1] السَّلاهبُ منهنّ فى وجه الحَماة كاتِب

والزَّوجَ إن الزوج بئس الصاحب

فقال : وكيف قلت لها هذا ولم تتزوّج ! وأى شىء قلت فى تأخير تزويجها ؟ قال : قلت :

كأنّ ظَلَّامةَ أخت شَيْبانْ يَتيمةٌ ووالداها حَيَّانْ

الرأسُ قَمْلٌ كُلّه وصِئبانْ وليس فى الساقَيْن إلّا خَيْطان

تلك التى يفزع منها الشَّيطان

فضحك هشام حتى ضحك النساء لضَحِكه، وقال للخَصِىّ : كَم بقى من نفقتك ؟ قال : ثلثمائة دينار . قال : فأعطه إياها ليَجعلها فى رِجْل ظَلَّامة مكان الخيطين .

رأيه لهشام فى النساء

وذُكر أن أبا النَّجم دخل على هشام بن عبد المَلك ، وقد أتت له سبعون سنة ، فقال له هشامُ : ما رأيُك فى النساء ؟ فقال : إنّى لأنظُر إليهنّ شَزْرا ، وينظُرن إلىّ خَزْراً[2] . فوَهب له جارية ، وقال له : أُغْدُ علىّ فأَعْلمنى بما كان منك . فلما أصبح غدا عليه . فقال له : ما صنعتُ شيئاً ولا قَدرتُ عليه ، وقد قلتُ فى ذلك أبياتاً ؛ ثم أنشده :

نظرتْ فأعجَبها الذى فى دِرْعها من حُسْنه ونَظرتُ فى سِرْباليَا

فرأتْ لها كَفَلاً يَميل بخَصْرها وَعْثاً[3] روادفُه وأجْثَمَ رابيا

ورأيتُ مُنْتشِرَ العِجان[4] مُقلِّصاً رِخْواً مفاصلُه وجِلْداً باليا

أُدْنِى له الرَّكَبَ[5] الخَلِيقَ كأنما أُدنى إليه عَقاربا وأفاعيا

(١) السلاهب : الطويلة .

(٢) الشزر : النظر بجانب العين فى إعراض . والخزر : النظر بمؤخر العين .

(٣) الوعث : اللين . (٤) العجان : القضيب . (٥) الركب : الفرج .

ما بالُ رأسِك من ورائىَ طالعاً أظننتَ أنّ حِرَ الفَتــاة ورائيا
فاذهبْ فإنّك ميّتٌ لا تُرتجَى أبَدَ الأبيــد ولا عَمِرْتَ لياليا
أنت الغَرُور إذا خُبِرْتَ وربما كان الغَرورُ لمن رَجاه شــافيا
لـكنَّ أَيرى لا يُرجَّى نفعُــه حتى أَعُود أخا فَتــاء ناشــيا

فضَحك هشام ، وأمر له بجائزة أخرى .

رجزه الذى فيــه الغنــاء

والرّجز الذى فيــه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبـار أبى النَّجم العجلى ، هو قولُه :

تَضحك عمّا لو سَقَتْ منــه شَفَا مِن أُقحُوانٍ بَلَّه[1] طَلُّ الضُّحَى
أغرَّ يجلو عن غِشَا العين العَشَا حُلْوٍ بعَيْنىْ كُلِّ كَهْــلٍ وفَتى
إنّ فؤادى لا تُسلِّيــه الرُّقَى لو كان عنها صاحياً لقــد صَحى

(١) فى بعض أصول الأغانى : « قطر الندى » مكان « طل الضحى » .